

دراسة أثرية لمدينة زانا "البازيليكا المسيحية نموذجاً"

An Archaeological Study of the City of Zana: The Paleochristian Basilica as a Case Study

ط.م/ قوشام مريم

معهد الآثار / جامعة الجزائر 02.

البريد الإلكتروني: gouchammeriem1999@gmail.com

أ.د./ حاجي ياسين رابح

مخبر البناء الحضاري للمغرب الأوسط- الجزائر/معهد الآثار/جامعة الجزائر 02.

البريد الإلكتروني: yacine.rabah.hadji@univ-alger2.dz

الملخص:

تميزت منطقة شمال إفريقيا بتعدد وتنوع حضاراتها في الفترة القديمة، بحيث خلفت لنا اليوم شواهدا وآثارا تدل على نشاط الإنسان في تلك الفترة، وتعتبر مقاطعة نوميديا من بين المقاطعات الغنية بالآثار في شمال إفريقيا خاصة جانب العمارة التي تختلف في الخصائص المعمارية والوظيفية التي تؤديها، ومن بين أنواعها وأهمها العمارة الدينية المسيحية التي كانت تؤدي وظيفة دينية حسب تعاليم ومعتقدات الدين المسيحي.

تحتوي مدينة زانا بولاية باتنة على العديد من المعالم الأثرية ذات وظائف مختلفة، والتي تعود للفترة القديمة منها البازيليكا المسيحية التي تحتوي بدورها على مكونات هامة ساهمت بشكل كبير في ممارسة الشعائر والطقوس الدينية المسيحية.

الكلمات المفتاحية: العمارة الدينية المسيحية، زانا، البازيليكا المسيحية.

Abstract:

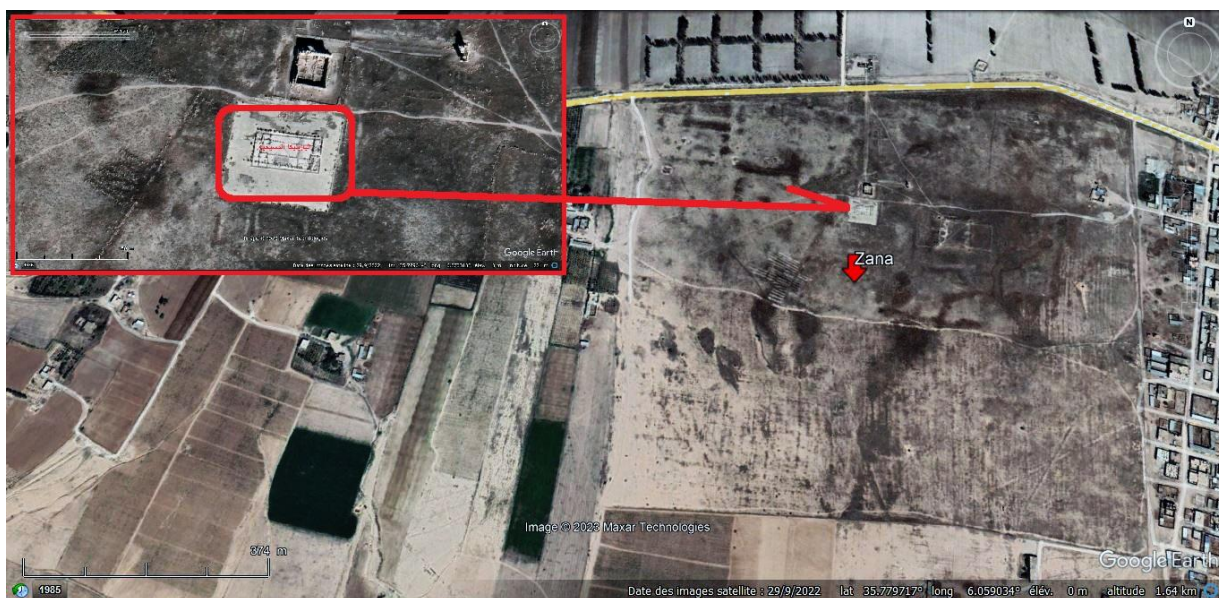
The North African region was characterized in antiquity by the multiplicity and diversity of its civilizations, which have left us today with abundant evidence and material traces of human activity from that period. Among the most significant of these remains is Christian religious architecture, which fulfilled a religious function in accordance with the teachings and beliefs of Christianity.

The city of Zana, located in the province of Batna, contains numerous monuments of different functions dating back to antiquity, most notably the Christian basilica. This basilica, in turn, comprises important architectural and functional elements that played a significant role in the practice of Christian religious rites and rituals.

Keywords: Christian religious architecture; Zana; Christian basilica.

الموقع الجغرافي لمدينة زانا الأثرية:

تقع مدينة زانا (ديانا فيتيرانوروم) غرب المدينة الحديثة زانا البيضاء، تتربع على مساحة المحمية الحالية حسب محرك قوغل إيرث الجغرافي حوالي 768075م² ذات إحداثيات: 6.074294° 35.778003° ، وتحتوي مدينة زانا الأثرية على العديد من المعالم التي تعود للفترة القديمة، من أهمها المعلم الذي نحن بصدد دراسته ووصفه والذي يعود للفترة المسيحية القديمة أي الفترة البيزنطية في أفريقيا، وهو: البازيليكا المسيحية التي تقع في وسط المدينة الأثرية تحديدا في الفوروم حسب الإحداثيات: 6.074622° 35.779293° (الصورة الجوية 01).



الصورة الجوية 01: تمثل موقع مدينة زانا الأثرية والبازيليكا المسيحية. عن: Google earth.

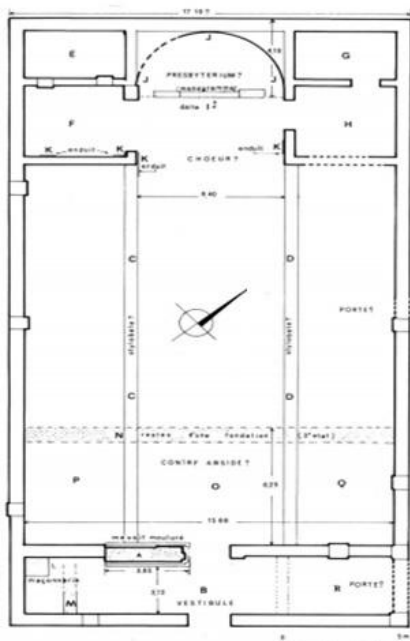
بنيت على ارضية الفوروم الذي يعود لما قبل الاحتلال البيزنطي للمنطقة وللمدينة. ولأهمية موقع البازيليكا المسيحية، نطرح الأسئلة التالية:
- ما هو مخطط البازيليكا المسيحية؟ وما هي أقسامها وتقنيات ومواد بناءها؟ وما هي المواد الأثرية المكتشفة فيها؟

يتميز مخطط البازيليكا المسيحية بمخطط إستيطالي، فحسب الباحث قزال¹ فان أبعاده: 33م×17,10م، وتتجه حنيثها نحو الجنوب-الشرقي، اما حسب الباحث دوفال فتتجه نحو الشمال-الغربي². اما فيما يخص معاينتنا الميدانية لهذا المعلم، لاحظنا اتجاؤه نحو الشمال-الغربي كما جاء عند الباحث دوفال، وتبلغ أبعاده: 31,20م×16,90م.

¹ - GSELL, S., 1901, p. 340.

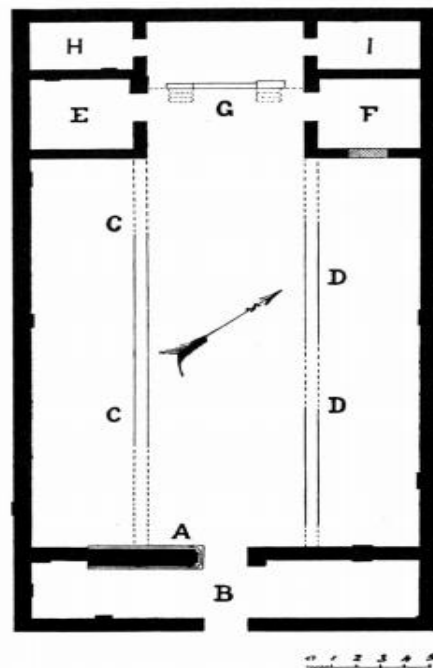
² - DUVAL, N., 1977, p. 852.

يتم الدخول إلى البازيليكا المسيحية من مدخلها الرئيس من الواجهة الجنوبية-الشرقية، والذي يفتح على مجاز (B) وينفس المحور يفتح على الجناح الأوسط أي على حيز العبادة المقسم إلى ثلاثة أجنحة: جناح أوسط، وجناحان جانبيان، يفصل بينهما جداران (C و D) او صفان من الأعمدة، لم يبق منها سوى الركائز³ (المخطط 01).



المخطط 02: مخطط البازيليكا المسيحية حسب الباحث

دوفال. عن: DUVAL, N., 1977, p. 853.



المخطط 01: مخطط البازيليكا المسيحية حسب الباحث

قزال. عن: GSELL, S., 1901, 02, p. 339.

ينتهي الجناح الأوسط بعد المرور بمنطقة الخورس بكنية، والتي اكتشفت حسب دوفال من طرف الباحث كريستوفل، الذي أشار إلى أن جزءها الأيمن فقط بارز⁴. تنتمي هذه الكنيسة إلى نمط الكنيسة غير البارزة بدار صدر البازيليكا المستقيم حسب تخطيط الباحث حاجي، وتصنف ضمن الكنائس المستطيلة⁵، وعلى جانبيها أربع غرف خدمية، من الجهة الشمالية غرفتان، ومن الجهة الجنوبية أيضا غرفتان، تفتح كلها على الكنيسة⁶ (المخطط 01). أما حسب الباحث دوفال، الذي اقترح تعديلات جديدة على مخطط البازيليكا المسيحية: فالغرفتان الشماليتان تتصلان فيما بينهما عن خلال مدخل، أما الغرفة الموجودة في

³ - GSELL, S., 1901, p. 340.

⁴ - DUVAL, N., 1977, p. 859.

⁵ - حاجي، ياسين رابع، 2008م، ص. 331.

⁶ - GSELL, S., 1901, pp. 339-340.

الجهة الجنوبية-الغربية مغلقة كلياً اي معزولة، بينما الغرفة التي تجاورها تتصل بالجنح المركزي⁷
(المخطط 02).

أثناء المعاينة الميدانية والتأكد من مقاسات الغرف، تبين لنا أن الغرفتان الغربيتان لكل من الجهتان الشمالية والجنوبية أصغر من الغرفتان اللتان بجانبهما لكلا الجهتان. والغرفة التي وصفها الباحث دوفال على أنها مغلقة كلياً، فهي مفتوحة على الحنية والغرفة التي بجانبها، ومفتوحة أيضاً على الفوروم. كما لا نملك أي معلومات توضح لنا وظائف هذه الغرف (الصورة 03، و04، و05).



الصورة 05: تمثل الحنية مأخوذة من الزاوية الغربية. عن: قوشام، مريم، مارس 2023م.



الصورة 04: تمثل الحنية مأخوذة من الزاوية الجنوبية. عن: قوشام، مريم، مارس 2023م.



الصورة 03: تمثل الحنية مأخوذة من الزاوية الجنوبية-الشرقية. عن: قوشام، مريم، مارس 2023م.

⁷ DUVAL, N., 1977, p. 859.

اقترح الباحث دوفال حنية مقابلة في الجهة الجنوبية-الشرقية، على جانبيها غرفتان خدميتان، وأشار إلى باب في الجهة الشمالية-الشرقية يؤدي لهذه الحنية. إذ يعتبر هذا المخطط المقترح من بين الأنواع المنتشرة في إفريقيا⁸ في الفترة البيزنطية. حسب المعاينة الميدانية، فإنه يوجد ركام من التربة وعليه حجارة ماعثرنا عليه اليوم في مكان الحنية المقابلة هو تراكم للتربة فوقها حجارة متراكمة وعلى جانبيه غرفتان مغلقتان بدون مداخل، مما يوحي الى افتراض نفس الشيء (الصورة 06، و07، و08، و09).



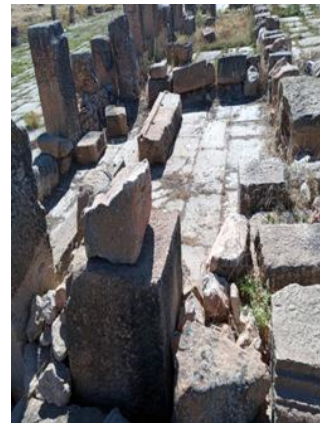
الصورة 07: تمثل الغرفة الخدمية الشمالية للحنية المقابلة مأخوذة من الزاوية الجنوبية. عن: قوشام، مريم، مارس 2023م.



الصورة 06: تمثل مكان الحنية المقابلة مأخوذة من الزاوية الجنوبية-الشرقية. عن: قوشام، مريم، مارس 2023م.



الصورة 09: تمثل مدخل في الجهة الشمالية-الشرقية مأخوذة من الزاوية الجنوبية-الغربية. عن: قوشام، مريم، مارس 2023م.



الصورة 08: تمثل الغرفة الخدمية الجنوبية للحنية المقابلة مأخوذة من الزاوية الشمالية. عن: قوشام، مريم، مارس 2023م.

مواد وتقنيات البناء :

⁸ - GUI, I., 1992, p. 158.

بنيت البازيليكا المسيحية بمواد معادة الإستخدام مأخوذة من المباني القديمة كالقواعد المكتوبة، وفقرات العقد والأفاريز⁹، واستعملت أيضا النقائش في بناء جدران البازيليكا مع الحجارة الدبشية (الصورة 10)، وربطها مع بعضها البعض بواسطة مادة الملاط (الصورة 11). بنيت جدران البازيليكا بالتقنية الإفريقية، أما أرضيتها فهي نفس أرضية الفوروم (الصورة 12).



الصورة 10: تمثل الحجارة الدبشية والحجارة المنحوتة مبنية بالتقنية الإفريقية. عن: قوشام، مريم، مارس 2023 م.

الصورة 11: تمثل الملاط المستعمل في الجدران. عن: قوشام، مريم، مارس 2023 م.

الصورة 12: تمثل الارضية المبلطة للبازيليكا المسيحية. عن: قوشام، مريم، مارس 2023 م.

اللقى الأثرية المكتشفة بالبازيليكا:

حسب تقارير الحفريات لم يتم العثور على بقايا أثرية ماعدا ثلاث نقائش¹⁰، وثلاث نقائش أخرى أكتشفت من طرف الباحثين قزال وقرابو¹¹.

النقيشة الاولى:

D.M.S
PAELIVS
IANVAIV
ANIS

تكلمة النقيشة:

D(iiis) M(anibus) S(acrum)
P(ublius) AELIVS
IANVA(r)IVS
(vixit) AN(n)IS

ترجمة النقيشة:

وضعت الكتابة للآلهة مانس المقدسة وإلى بوبليوس إيانواريوس الذي عاش

(؟)

التاريخ:

نقيشة جنائزية مجهولة التاريخ والمكان¹².

⁹ - GSELL, S., 1901, p. 339.

¹⁰ - CHRISTOFLE, M., 1938, p. 243.

¹¹ - GSELL, S.; GRAILLOT, H., 1894, pp. 547-548.

¹² - CHRISTOFLE, M., 1938, p. 246.

ANC
T ANC

النقشة الثانية:

لا يمكن تكملتها.

تكملة النقشة:

لا يمكن ترجمتها بسبب عدم توفر المعطيات الكافية.

ترجمة النقشة:

مجهولة التأريخ¹³.

التأريخ:



توجد في الفوروم
في الجهة الشمالية
للبنازليكا مكسرة الى
جزأين (الصورة 13).

الصورة 13: تمثل أجزاء من نقشة مكتشفة بالبنازليكا. عن: قوشام، مريم، مارس
2023م.

النقشة الثالثة:

حسب المعاينة الميدانية، لم نعثر على النقشة كاملة كما وجدها الباحث كريستوفل، وإنما عثرنا إلا على الجزء المتبقى منها غير مكتوب في الجهة الشمالية للبنازليكا (الصورة 14، و15).

¹³ - Ibid., p. 247.



الصورة 15: تمثل الجزء المتبقي من النقيشة. عن: قوشام، مريم، مارس 2023م.



الصورة 14: تمثل لنقيشة مكتشفة من طرف كريستوفل.

AX/////

النقيشة الرابعة:

لا يمكن تكملتها.

تكلمة النقيشة:

لا يمكن ترجمتها بسبب عدم توفر المعطيات الكافية.

ترجمة النقيشة:

مجهولة التاريخ والمكان¹⁴.

التاريخ:

D
S.DD
OPATR

النقيشة الخامسة:

لا يمكن تكملتها.

تكلمة النقيشة:

لا يمكن ترجمتها بسبب عدم توفر المعطيات الكافية.

ترجمة النقيشة:

مجهولة التاريخ¹⁵.

التاريخ:

M///
VPERIORI
O SIBI ET C
I SVAE FE
M(emoriae)
(...) (s)VPERIORI
O SIBI ET C(oniugi)
I SVAE FE(cit)

النقيشة السادسة:

تكلمة النقيشة:

لذاكرة (...) الأعلى، وضع النقيشة لنفسه ولزوجته ...؟

ترجمة النقيشة:

¹⁴ - GSELL, S.; GRAILLOT, H., 1894, p. 547.
¹⁵ - Ibid.

التأريخ: نقيشة مسيحية تؤرخ في القرن الرابع الميلادي¹⁶.

أكتشفت بالبازيليكا أيضا حجارة منحوتة في الوسط بطغراء المسيح موجودة قبل الحنية وهي حجارة مأخوذة من قوس الامبراطور ماكريينوس¹⁷. حسب القراءة الأولية التي قام بها الباحث دوفال لحروف الطغراء، فان هذا النمط من الطغراء ذات الشكل الصليبي، والذي يستعمل على تيجان الاعمدة ولتزيين المباني والمعالم في عهد الإمبراطور جوستينيانوس الاول، وتشبه الطغراء التي تعود لفترة حكم الامبراطور



موريكيوس تيبيريوس الى المنتصف الثاني للقرن السادس الميلادي¹⁸.
(الصورة 16).

الصورة 16: تمثل البلاطة الحجرية المنحوتة بطغراء المسيح. عن: قوشام، مريم، مارس 2023م.

بالاضافة الى النقائش والطغراء، نجد التيجان منتشرة في البازيليكا المسيحية من النوع الكورنثي في البازيليكا

الجهة الجنوبية-الشرقية، مجزأ الى قسمين، وقاعدة اتيكية امام الحنية (الصورة 17، و18).



الصورة 18: تمثل قاعدة اتيكية. عن: قوشام، مريم، مارس 2023م.



الصورة 17: تمثل تاج كورنثي. عن: قوشام، مريم، مارس 2023م.

¹⁶ GSELL, S.; GRAILLOT, H., 1894, p. 548.

¹⁷ RENIER, L., 1854, p. 192.

¹⁸ DUVAL, N., 1977, pp. 860-865.

الخلاصة:

بعد قيامنا بدراسة أثرية للبازيليك المسيحية لموقع زانا الأثري، استنتجنا أن: -
تكمّن أهمية البازيليك في موقعها المميز والمهم، وهو الفوروم القلب النابض للمدينة في الفترة البيزنطية وبقرّبها من الحصن الدفاعي، حيث تمثل الجانب الروحي للجنود المرابطين فيه، وهذه الخاصية نجدها في جل المواقع التحصينية للفترة البيزنطية في إفريقيا، إلا وهي قرب البازيليكات المسيحية من التحصينات.

- تتميز البازيليك المسيحية مثلها مثل باقي البازيليكات المسيحية بمخطط إستطالي ومدخل رئيسي ثلاثة أجنحة، حنية غير بارزة وهي من صنف الحنيات المستطيلة وأربع غرف خدمية، وهو المخطط الغالب في إفريقيا المسيحية، أي أن مخطط البازيليك هو إفريقي محلي وغير مستورد، إلا أن فكرة الحنيتين المتقابلتين في البازيليك المسيحية الواحدة هي ميزة الفترة البيزنطية فقط أي جيئ بها مع دخول البيزنطيين عند احتلال إفريقيا، وهي تخص عبادة القديسين التي انتشرت بصفة واسعة في أرجاء إفريقيا، بالرغم من وجودها سابقا في المنطقة.

- لم نستطيع فهم ومعرفة الطقوس الدينية التي كانت تقام في البازيليك المسيحية بسبب طريقة الاكتشاف التي اتبعتها الإدارة الاستعمارية آنذاك، وهو الوصول إلى أرضية الفترة الرومانية بدون مراعاة الفترات اللاحقة لها، مما أدى إلى حذف الطبقات الإسلامية وحتى البيزنطية، التي كانت ستساعد في فهم موقع البازيليك في الفوروم وما مدى اتصالها بالمعالم التي عاصرتها، وفهم الحركية والنشاط التي كانت في تلك الفترة، وفي البازيليك المسيحية في حد ذاتها ومختلف الفضاءات وحيز العبادة والغرف الخدمية، وكيف كانت الحنية المقابلة.

- ومنه تبقى إشكالية التأريخ المطلق مطروحة، إلا أننا نستطيع تأريخها نسبيا نظرا لوجود بعض الدلائل المهمة التي نراها مهمة، وهي: الطغراء الجوستينيانية، أو الموريكيوسية والتي تؤرخ بالقرن السادس ميلادي، وأسس البازيليك وجدرانها التي بينت مباشرة فوق أرضية الفوروم بالتقنية البيزنطية، هذا ما يوحي إلى بناءها لاحقا بعد بناء المدينة في فترة القرن السادس ميلادي، أما فيما يخص تأريخ قزال للنقيشة المسيحية بالقرن الرابع ميلادي، فهي من المرجح، أنه أعيد استعمالها لأنها تتوافق والتعاليم الدينية في الفترة البيزنطية. وأخيرا، اتجاه الحنية نحو الشمال-الغربي، الذي في الحقيقة طرح إشكال في تأريخها، بما أن البازيليك مزودة بحنيتين متقابلتين، فإن الحنية المندثرة ولم يتبقى منها إلا الركائز هي الحنية الحقيقية للبازيليك، والحنية الباقية حاليا هي الحنية الخاصة بالمارتيريوم¹⁹ المخصص لعبادة القديسين والشهداء، والتي انتشرت خاصة في هذه الفترة. بالنسبة للاتجاه الليتورجي لبازيليك موضوع الدراسة، فقد وجدت بازيليكات مسيحية مؤرخة بالفترة ما قبل القرن الخامس ميلادي، ومتجهة نحو الغرب أو الشمال-الغربي

¹⁹- حاجي، ياسين رابح، 2013م، ص ص. 49-74.

في مواقع أثرية أخرى، كموقع تيمقاد²⁰ الأثري بالنسبة للبازيليك المسيحية الجنائزية 08 لأنها كانت معابد حولت وعدلت لتتماشى مع الدين المسيحي، انفق المسيحيون على تقنين القبلة وجعلها نحو الشرق²¹ في القرن الخامس الميلادي، فالبازيليك المسيحية لزاننا تتجه نحو الجنوب-الشرقي اذا رجحنا وجود حنية مقابلة للحنية الموجودة حاليا.

كما نتقدم ببعض الإقتراحات، وهي كالتالي: -القيام بدراسات وفتح مشاريع حفريات أثرية، تعطي لنا نتائج مرضية لحل العديد من الإشكاليات المطروحة.

-تهيئة الموقع وإعادة الاعتبار له، وإعطائه قيمته الأثرية والتاريخية، لتمكين الباحث والمهتم من فهم الجانبين الأثري والتاريخي للموقع. ومنه يؤدي بدفع عجلة التنمية على كل الأصعدة (الإجتماعية والإقتصادية والسياحة الثقافية).

قائمة الببليوغرافيا:

1. حاجي، ياسين رابح، 2007م، البازيليكات المسيحية في مدينتي تيمقاد وتازولت الأثريتين، مجلة دراسات تراثية، 1، ص ص. 153-191.
2. حاجي، ياسين رابح، 2008م، البازيليكات المسيحية في مقاطعة نوميديا، دراسة أثرية تنميطية، أطروحة دكتوراه آثار قديمة غير منشورة، معهد الآثار، جامعة الجزائر.
3. حاجي، ياسين رابح، 2013م، "عبادة القديسين في تيبازة في الفترة المسيحية-البيزنطية"، دفاثر البحوث العلمية، 2، ص ص. 49-74.
4. CHRISTOFLE, M., 1938, Rapport sur les travaux de fouilles et consolidations effectués en 1933-1934-1935-1936 par le service des monuments historiques de l'Algérie, Alger.
5. DUVAL, N., 1977, «La Basilique de Zana (Diana Veteranorum) une nouvelle église à deux absides ou un monument à auges ?», in MEFRA, 89, pp. 847-873.
6. GSELL, S., 1901, Les monuments antiques de l'Algérie, 02, Paris.
7. GSELL, S.; GRAILLOT, H., 1894, «Exploration archéologique dans le département de Constantine (Algérie) – Ruines romaines au nord des monts de Batna», in M.E.F.R, 1894, pp. 501-609.
8. GUI, I., 1992, Basiliques chrétiennes d'Afrique du Nord, I, Inventaire de l'Algérie, Paris.
9. RENIER, L., 1854, Mélanges d'épigraphie, Paris.

²⁰ حاجي، ياسين رابح، 2008م، ص ص. 267-269.

²¹ حاجي، ياسين رابح، 2007م، ص. 171.